البلاغة
بين القدامى والمحدثين

إعداد

د/ عبدالرحيم دفع االله أحمد العقيلي
أستاذ مشارك ـ جامعة الإمام الهادي ـ السودان
جامعة القصيم ـ المملكة العربية السعودية

المقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومَن والاه، وبعد:

كان العرب في الجاهلية في أعلى درجات الفصاحة والبلاغة، لكنهم عند نزول القرآن الكريم لم يستطيعوا الوقوف أمام جمال أسلوبه، وحلاوة لفظه، وسِحْر بيانه، {وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٣)}[١]، فأدب اللغة العربية تعلَّق حينها بقواعد فكرية ومفهومات ربانية، فتميَّز أسلوبه بجمال التصوير، ودقة التعبير، وإثارة المشاعر والعواطف، فعبارته قوية، ونبرته مؤثِّرة، وجُمَلُه معبِّرة وبليغة، وأسلوبه الفكري يقوم على لغة العقل والإقناع، ومعرفة الرائع الحسن من الكلام.

ولا شكَّ أن اللغة العربية قد أثبتت جدارتها على استيعاب الدلالات الدينية، والإنسانية، والاجتماعية، والروحية، بوصفها لغةً حية لها مقوِّماتها الذاتية، وتقنياتها الخاصة بها التي تحفظ فاعليتها وسلامتها.

وأسَّست هذه المقوِّمات مبادئ لعلم النقد البلاغي للبلاغيين القُدَامى، وكانت أبحاثهم منطلَقًا للدراسات النقدية في المستقبل، وأصبح هناك ربط بين البلاغة وعلم النص الذي يسمَّى بالبلاغة الجديدة، مما يسهِّل عملية التواصل بين العِلمين؛ فالضرورة المعرفية تُلِحُّ على وجود علم للنص؛ لدراسة النصوص بصفة عامة، وإثبات أن كلَّ نص هو (بلاغة)، ويمثِّل وظيفة تأثيرية، ولكنه ليس علمًا؛ لأنه أسلوب خلا من معايير مقرَّرة وقواعد ثابتة[٢].

وقد اهتم العرب في الجاهلية بالبلاغة الفطرية البسيطة البعيدة عن التعقيد والتقعيد، والتي أُطلِق عليها اسم البديع[٣]، وقد كان أمرًا هَدَتْهُم إليه سلائقُهم، وعَشِقَتْه نفوسُهم، وأَلِفَتْه ألسنتُهم وآذانهم، وفُطِرُوا عليه، فهم يعرفونه، ولا يكادون يختلفون عليه، وتناولت البلاغة ألوانًا من التشبيه، والكناية، والاستعارة، والتعريض، بالإضافة إلى ألوان البديع.

فالبلاغة العربية عند الجاحظ في كتابه (البيان والتبيين): هي صياغة النظرية العامة للفهم والإفهام، أو للبيان والتبيين، فقد سُئِل ابن المقفَّع عن البلاغة، فقال: "البلاغة اسمٌ جامع لمعانٍ تجري في وجوه كثيرة، فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون في الاحتجاج، ومنها ما يكون جوابًا، ومنها ما يكون ابتداءً، ومنها ما يكون شعرًا، ومنها ما يكون سَجْعًا وخُطَبًا، ومنها ما يكون رسائل، فعامة ما يكون من هذه الأبواب الوحي فيها والإشارة إلى المعنى، والإيجاز هو البلاغة"[٤].

ولذلك سَمَّى المتقدِّمون علم البلاغة وتوابعها بعلم نقد الشعر، وقد تطرَّق إلى ذلك قُدَامة بن جعفر في كتابه (نقد الشعر)، حيث قال: "هي اللفظ، والمعنى، والوزن، والتقفية، فيحدث من ائتلافها بعضها إلى بعض معانٍ يتكلم فيها"[٥]، وبذلك تجتمع في الشعر أوصاف الجودة.

ويرى ابن الأثير أن الفصاحة هي الظهور والبيان في أصل الوضع اللغوي، وهو الظاهر البيِّن؛ فألفاظه مفهومة لا تحتاج في فهمها إلى استخراج من كتاب لغة؛ لأنها مألوفة الاستعمال بين أرباب النثر والنظم، دائرة في كلامهم[٦].

وما كتبوه لم يكن غير إشارات وآراء، لم يرتقوا بها إلى أن تكون فنًّا قائمًا بذاته وفق أُسُس وقواعد محدَّدة يسير على نهجها الأدباء، بمقاييسِ فنيةِ أدبِهم وسرِّ جماله، إلى أن جاء الجرجاني فأَرْسَى نظرية النظم، فحسم بذلك موضوع اللفظ والمعنى، أو الشكل والمضمون.

في هذا البحث حاولت إبراز جهد العلماء الذين بحثوا في مكنونات البلاغة النفيسة، ودورها في بيان لغة القرآن وفهمه، وإظهار محاسن سِحْرِه، وقد قسمت هذا البحث إلى مباحث:

الأول: مفهوم البلاغة عند القدامى.

الثاني: مفهوم البلاغة عند الْمُحْدَثِين.

الثالث: أوجه الاختلاف والائتلاف عندهما.

ثم شمل البحث: المقدمة، والمباحث الثلاثة، والخاتمة، والخلاصة، فنسأل الله التوفيق والسداد، وأن يُبْعِدَنا عن نزغات الشيطان ووساوسه، وهَمْزه ونَفْثِه، وأن ينفع بنا، ويُثيبنا عليه، إنه سميع مجيب.

المبحث الأول: مفهوم البلاغة عند القدامى

يُعَدُّ الجاحظ (ت ٢٢٥ هـ) أول مَن تناول علوم البلاغة في كتابه (البيان والتبيين)، ومن المسائل التي ذكرها: صحة مخارج الحروف، والعيوب التي سببها اللسان أو الأسنان، والصلة بين الألفاظ، والعيوب الناجمة من تنافُر الحروف، وسلامة اللغة، والجملة، والعلاقة بين اللفظ والمعنى، والإيجاز والإطناب، والملاءمة بين الخطبة وموضوعها، وبين الخطابة والسامعين، وهيئة الخطيب وإشارته(٧)، كما أشار في

(البيان والتبيين) إلى مباحث كثيرة عن الفصاحة والبلاغة، وفضل حُسن البيان، وتبيان ما حَسُنَ من السجع والبديع(٨).

وقد ربط الجاحظ بين النسج والصناعة والنص، وذهب إلى استحسان المعاني، وأن المعاني مطروحة في الطريق، يعرفها البدوي والعربي، والعجمي والقروي، والشأن في ذلك إقامة الوزن، وتخيُّر اللفظ، وكثرة الماء، وصحة الطبع، وسهولة الْمَخْرَج، وجودة السَّبْك، فالشعر جنس من التصوير، وصناعة وضربٌ من النسج(٩).

ثم جاء بعده عبد الله بن المعتز (ت ٢٩٦ هـ)، وفي كتابه (البديع) جعل له خمسة أنواع، هي: المطابقة، والمذهب الكلامي، والاستعارة، ورد الأعجاز على ما تقدَّمها، والتجنيس(١٠).

وقد أشار فيه إلى أن الْمُحْدَثِين لم يخترعوا البديع، وإنما كان منذ العصر الجاهلي، وفي القرآن الكريم، والعصر الإسلامي(١١).

وقال ابن قدامة (ت ٣٣٧ هـ): العلم بالشعر ينقسم إلى: علم العروض ووزنه، وعلم قوافيه ومقاطعه، وعلم غريبه ولغته، وعلم معانيه والمقصد به، وعلم جيِّده ورديئه، فاهتموا بعلم العروض ووزنه، وعلم القوافي ومقاطعه، والغريب ونحوه، وتكلَّموا في المعاني الدالِّ عليها الشعر، وما الذي يريده الشاعر، ولم أجد أحدًا وضع كتابًا في نقد الشعر، وتخليص جيده من رديئه، وهذا الأمر أخص بالشعر، فرأيت الكتابة في ذلك بما يبلغه الوسع(١٢).

وفي هذا إشارة إلى كمال النقص في علم البيان الذي لم يتناوله العلماء بالتأليف.

ثم توالت الدراسات البلاغية لبعض المتكلمين، فمنهم المعتزلي علي بن عيسى الرُّمَّاني (ت ٣٨٦ هـ)، وتناول في كتابه (النُّكَت في إعجاز القرآن) إجابةً عن سؤال وُجِّه إليه، وطلب إليه تفسير تلك النكت في إجمال، وبدون تطويل في الحِجَاج، فردَّ تلك النكت إلى سبع جهات، هي: "التحدي للكافة والصرفة، وتَرْك المعارضة مع توافُر الدواعي، وشدة الحاجة، والبلاغة، والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلية، ونقض العادة، وقياس القرآن بكل معجزة، وابتدأ كلامه بتقسيم البلاغة إلى ثلاث طبقات، هي: العليا، والوسطى، والدنيا، وأشار إلى أن العليا هي: بلاغة القرآن، والوسطى والدنيا هي: بلاغة البلغاء حسب تفاوُتهم في البلاغة، وقسّمها إلى عشرة أقسام، شملت: الإيجاز، والاستعارة، والتشبيه، والتجانس، والتضمين، والتلاؤم، والتصريف، والمبالغة، والفواصل، وحُسن البيان"(١٣).

وعرَّف الرُّمَّانيُّ البلاغةَ بقوله: "هي إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ"(١٤)، وقال شوقي عن الرُّمَّاني: "إنه أضاف في حديثه عن البلاغة إضافات جديدة إلى مَن سبقوه؛ فقد حدَّد بعض فنونها تحديدًا نهائيًّا، ورسم لها أقسامها رَسمًا دقيقًا"(١٥).

وعرَّفها الآمدي (ت ٣٧٠ هـ) بأنها: "إصابة المعنى، وإدراك الغرض بألفاظ سهلة عذبة مستعمَلة، سليمة من التكلُّف، لا تبلغ الهذر الزائد على قدر الحاجة، ولا تنقص نقصانًا يقف دون الحاجة"(١٦).

ومن الدراسات البلاغية دراسة أبي بكر الباقلاني (ت ٤٠٣ هـ) في كتابه (إعجاز القرآن)، حيث خصَّص في كتابه هذا جزءًا تحدَّث فيه عن البديع، ولقد تحدَّث في هذا الجزء عن الإرداف والاستعارة، والمماثلة، ويتَّفق فيها مع العسكري في المطابقة

والتسمية والجناس والموازنة، وأخذ عن قدامة المبالغة، والمساواة، والإشارة، والتوشيح، والغُلُوّ والإيغال، وصحة التقسيم، والتكافؤ؛ ويُقصَد بها المطابقة، وأشار إلى الإيجاب والسلب على أنه فنٌّ مستقل عن الطِّبَاق، وتعرَّض إلى الكناية والتعريض، وجعلهما من ألوان البديع، وتحدَّث عن التذييل والالتفات، وجعلهما من فنون البديع، وجعل الاستطراد من البديع، وألحق بالبديع الاستثناء، وهو تأكيد المدح بما يشبه الذم، وقال إنه لم يذكر كل ما تعلَّق بالبديع، وإنما ذكر جزءًا منه(١٧).

ومن علماء القرن الثالث الهجري ابن طباطبا العلوي الأصبهاني (ت ٣٢٢ هـ)، تحدَّث في كتابه (عيار الشعر) عن صناعة الشعر، والميزان الذي تقاس به البلاغة، ويعتقد أن الأسلوب كشأن النَسَّاج الحاذق الذي يفوِّفُ وَشْيَه بأحسن التفويف، ويُسدِّيه وينيره، ولا يُهلهل شيئًا منه فيُشينه، وكالنقَّاش الرقيق الذي يضع الأصباغ في أحسن تقاسيم نقشه، ويُشبع كل صيغ منها حتى يتضاعف حُسنه في العيان(١٨).

وتلاه في القرن الرابع الهجري العسكري (ت ٣٩٥ هـ)، وفي كتابه (الصناعتين) تطرَّق في الباب الخامس منه إلى الإطناب والإيجاز، وأدخل فيهما فواصل القرآن، وفي التاسع تحدَّث عن البديع، وعدَّه خمسة وثلاثين فنًّا، وزاد على ما أورده المتقدِّمون ستة أنواع، هي: المجاورة، والتطريز، والتشطير، والاستشهاد، والتلطف، والمضاعف(١٩).

وعرَّف البلاغة بقوله: "وبلغت الغاية إذا انتهيت إليها، وبلَّغتها غيري، ومبلغ الشيء مُنتهاه، والمبالغة في الشيء الانتهاء إلى غايته، فسُمِّيَت البلاغة بلاغة لأنها تنهي المعنى إلى قلب السامع فيفهمه"(٢٠).

وعرَّفها القزويني (ت ٧٣٩ هـ) بأنها: "مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته"(٢١).

وابن رشيق (ت ٤٦٣ هـ) في كتابه (العمدة) تطرَّق إلى ما أشار إليه البلاغيون قبله من البيان والبديع، وأضاف إليه من الفنون البديعية المبالغةَ، ومن الناس من يراها عيبًا وهُجنة في الكلام، والاطِّراد من حُسن الصنعة عنده، إذا اطَّردت الأسماء دلَّت على قوة الشاعر، وباب نفي الشيء وإيجابه، ويعتبره من محاسن الكلام، فظاهره إيجاب وباطنه نفي، والاشتراك؛ وهو ما يكون في اللفظ والمعنى، والاتساع؛ وهو أن يقول الشاعر بيتًا يتَّسع فيه التأويل، فيأتي كل واحد بمعنى، والتغايُر؛ وهو أن يتضادَّ المذهبان في المعنى، حتى يتقاوَمَا ثم يَصِحَّا جميعًا(٢٢).

وتطرَّق الخفاجي (ت ٤٦٦ هـ) في كتابه (سِرّ الفصاحة) إلى بيان الصفة، وأشار إلى الفرق بينها وبين البلاغة، واعتبر الفصاحة خاصة بالألفاظ، بينما البلاغة تشمل الألفاظ والمعانى، وبذلك صار كل كلام بليغ عنده فصيحًا، وليس كل كلام بليغًا(٢٣).

وقسَّم الفصاحة إلى قسمين: فصاحة الكلمة، وفصاحة الكلام، وتحدَّث عن شروط كل واحدة منهما، وذكر من صفات البلاغة والفصاحة التتبيع، وهو نوع من الكناية، والإرداف، والطباق، والتمثيل.

"إن الكلام الفصيح هو الظاهر البيِّن، وأعني بالظاهر البيِّن أن تكون ألفاظه مفهومة لا يُحتاج في فهمها إلى استخراج من كتاب لغة، وإنما كانت بهذه الصفة؛ لأنها تكون مألوفة الاستعمال بين أرباب النظم والنثر، دائرة في كلامهم"(٢٤).

وهو ما يسمى عند العسكري وابن رشيق وقدامة بالمماثلة، ويشمل صور الكناية، مثل: بعيدةُ مَهْوَى القُرْطِ؛ كناية عن طول العنق، والاستعارة التمثيلية(٢٥)، وأشار إلى الاستدلال والتحرُّز، وهو ما سَمَّاه البلاغيون بعده بحُسن التعليل.

والجرجاني (ت ٤٧١ هـ) الذي وضع نظريتَيْ علم المعاني والبيان وضعًا دقيقًا، وكان بحثه علميًّا ووافيًا ومنظَّمًا، ونظرته فنية، فعُنِيَ فيه بشرح كل ما هو خفي، وحقَّق كل مسألة مضطربة، ووضع فيه من القواعد البلاغية ما أنار للدارسين طريقهم، وأحكم بيانه بضرب الشواهد والأمثلة، وكانت له بصيرة نافذة وحِسٌّ مُرْهَف في كتابَيْه (أسرار البلاغة) و(دلائل الإعجاز).

فالنظم عنده يقوم على ترتيب الكلام حسب دلالته ومضامينه في النفس؛ فالمتكلم يرتِّب أفكاره في ذهنه، وينظِّمها وينسِّقها في نفسه، ثم يجيء دور الألفاظ في الكتابة أو النطق، فتُرتَّب الألفاظ على حسب ترتيب الأفكار في الذهن، وتنسيقها في العقل، فاللفظ عنده يتبع المعنى في النظم[٢٦]، وبذلك يعتبر أول مَن وضع لبنة أُسس الطريقة التقريرية في تدوين مسائل علمَيِ البيان والبديع.

وقد مزج بين علوم البلاغة الثلاثة، ولذلك اقترنت كلمة الفصاحة والبلاغة عنده في (دلائل الإعجاز) وكأنها ذات دلالة واحدة، وفي (أسرار البلاغة) يعتبر الاستعارة ضربًا من ضروب البديع، ويرى علوم البلاغة علمًا واحدًا تتشعَّب أبحاثه[٢٧].

وأشار وليد مراد إلى أن عبد القاهر أول مَن وضع نظرية البيان في تاريخ الباحثين[٢٨].

والزمخشري (ت ٣٩٥ هـ) في كتابه (الكشاف) يُعتبر أول مَن اكتمل عنده علمَا المعاني والبيان، وجاء من بعده السكاكي المولود (٥٥٥ هـ)، وكانت فترته فترةَ جَمعٍ وتقعيد وتصنيف، وفصلٍ للبلاغة عن الأدب، وكانت هذه الفترة بداية مرحلة الجمود التي أَخَّرت البلاغة عن التطوُّر، وأبعدها عن غايتها، وكان محاكيًا للإغريق في منهجهم، وفق تصوُّر فلسفي، فالبلاغة مدينة للسكاكي؛ إذ يرجع له الفضل في لَمِّ

شتاتها، وتقسيمها إلى علومها الثلاثة، وذلك بعد أن كانت مجرد مسائل ومباحث متناثرة في جهود مَن سبقه، وكانت كتاباته عن وَضْع منهج تفصيلي لكليات البلاغة وجزئياتها وأصولها وفروعها.

وكل مَن جاء بعده استظلَّ بظلِّه، وقطف من بستانه، وكان قصارى جهدهم أن تناولوا كتاباته بالاختصار تارة، وبالشرح أخرى[٢٩]، وبعده كثر المصنِّفون والملخِّصون لكتب البلاغة التي أُلِّفت قبلهم، فمنهم ابن الأثير المولود (٥٨٨ هـ) في كتابه (المثل السائر)، والقزويني الذي لخَّص كتاب السكَّاكي، وهو الذي نال شهرة واسعة، حيث لخَّصه ووضَّحه، وكان له الفضل في صياغة المباحث البلاغية في عبارات جامعة محرَّرة، فعُنِي فيه بجمع القواعد وتقريرها في أوضح عبارة وأوجز لفظ.

وعرَّف البلاغة بقوله: "هي بلوغ المتكلم في تأدية المعنى حَدًّا له اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقَّها، وإيراد أنواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها"[٣٠].

وبذلك تكون هي فنّ القول الذي يُبْنَى على موهبة وقدرة واستعداد، يستند إلى حفظٍ لما يستجد من روائع الأدب، وممارسة للتعبير عما يَجِيش في الذاكرة من أفكار، وتسمو به النفس؛ ليتهيَّأ للإنسان تكوين الذوق الأدبي للحكم على الأعمال الأدبية[٣١]، وهي وضع للكلام على إدراك السامع بتطويل أو إيجاز، وتأدية المعنى بعبارة فصيحة، وصحيحة، لها وَقْعٌ في نفس القارئ أو السامع، مع إدراك مكانة مَن يعرض أمامه الكلام.

وفي العصر العباسي تطوَّر علم البلاغة وازدهر، وظهر المجتهدون، وطوَّروا هذا العمل تطوُّرًا كبيرًا، وَاكَبَ تطوُّر الأدب في ذلك العصر العملاق، وفي آخره كانت بداية عصر الانحدار والجمود.

الأسلوبية عند القدامى

يُقال للسطر من النخيل: أسلوب، وكل طريق ممتد فهو أسلوب، والأسلوب الطريق، والوجه والمذهب، والأسلوب بالضم الفن، ويقال: أخذ فلان في أساليب من القول، أي: أفانين منه[٣٢]، وفي تعريف ابن منظور يظهر أن التعريف في اللغة له بُعْدَان؛ الأول: يرتبط بأساليب القوم وأفانينه، كأن تقول: سلكت طريق فلان، والثاني: المادي، حيث يرتبط مدلول الكلمة بشيء مادي في السطر من النخيل، الطريق الممتد[٣٣].

وسلكت أسلوب فلان: طريقته، وكلامه على أساليب حسنة[٣٤]، فالأسلوب عند أهل المعاجم يرتبط بالفن والطريق.

وفي المحيط في اللغة أن الأسلوب: الطويل، وكان ذلك على أسلوب الدهر، أي: على وجهه، والجمع: الأساليب، وهي أيضًا الطريق، والمذهب، ومنه أساليب الشعر ومذاهبه، والفن، والطريق، والمنهج، والسطر.

وتشير الكلمة إلى المضمون الدلالي للفظة "أسلوب" في التصوُّر البلاغي واللغوي القديم، دون ذكر لفظة "أسلوب" بهذا المفهوم، وإنما ذكروا الصياغة[٣٥].

وكان للعلماء القدامى دور كبير في تطوير وإثراء مفهوم الأسلوب في الشعر؛ كالأخفش (ت ٢٠٧ هـ)، والفراء (ت ٢٠٨ هـ)، وأبي عبيدة (ت ٢١٠ هـ)، رغم اختلاف الأهداف والمقاصد التي سعوا إليها بين بلاغة الخطاب القرآني، أو رَدّ طعون الملحدين في القرآن وعربيَّته، وإعجازه، فاهتموا بالأسلوب واعتنوا به؛ "لأن القرآن من كلام العرب، ومعرفة جوانبه لغة وصرفًا ونحوًا وبلاغة لا تتم إلا بالرجوع إلى كلام العرب، وتبيُّن خصائصه، ومناهجه في التأليف والتعبير"[٣٦].

وكانوا يتحدثون عن كيفية الوقوع على إعجاز القرآن، ويقولون: إنه لا يقف عليه إلا مَن عرف معرفةً بيِّنَةً وجوه البلاغة، وتكوَّنت له فيها ملَكة يقيس بها الجودة والرداءة في الكلام[٣٧]، وكانوا لَسِنِينَ بارعين في الاحتجاج والجدل.

ويعتبر كتاب مجاز القرآن لأبي عبيدة مرحلة أوَّلية من مراحل تطوُّر الأدب العربي عامة، وكان يحرص دائمًا على تأكيد صلة أسلوب القرآن، وفنون التعبير فيه بأساليب العرب وفنونهم، حيث كان يُلحِق الآية بالشاهد الشعري القديم، أو بكلام العرب الفصيح؛ كالأمثال، والأقوال المأثورة، والخُطَب، كما يبيِّن عن بعض ما جاء من ذلك في أسلوب القرآن، مع مقارنته بما ورد في الأدب العربي(٣٨).

كما سار على نفس النمط الأخفش والنحاس في كتابيهما (معاني القرآن)، كما ساوَى أيضًا بشر بن المعتمر (ت ٢١٠ هـ) بين اللفظ والمعنى، حيث يقول: "مَن أراد معنًى كريمًا فليلتمس له لفظًا كريمًا؛ فإن من حق المعنى الشريف اللفظَ الشريف، ومن حقِّهما أن تصونهما عما يهجنهما ويفسدهما"(٣٩).

وبذلك يكون بشر بن المعتمر قد التمس من الألفاظ ما لم يكن ساقطًا سوقيًّا ولا متوعِّرًا وحشيًّا، وفصل أقدار الكلام على أقدار المعاني(٤٠).

والأسلوب عند الجرجاني يتمثَّل في المساواة بين النظم والأسلوب، ويذهب إلى أن الأسلوب يقوم على الأصول العربية وقواعدها، ويجمع بينهما جمعًا عبقريًّا، حيث يجعل النحو قاعدة لكل نظم(٤١)، كما ركَّز القرطاجَنِّي على النظم الذي توسَّع فيه الجرجاني وبلْوَرَهُ، وجعل لكل غرض شعري مقاصده ومعانيه، كما أن الأسلوب يحمل في طياته تأليفات معنوية؛ وهي التي يختص بها البناء اللغوي، وتأليفات لفظية؛ وهي التي يهتم ويختص بها النظم، فالقرطاجني كانت نظرته أكثر شمولًا إلى النص؛ لأن له السبق في تحسُّس المقاييس الأسلوبية في النصوص الإبداعية، وكان يقاطع في الكثير من المسائل اللغوية والمعنوية والدلالية، كان أن له الكثير من الأطروحات اللسانية الفردية الحديثة، كتقاطُعه مع العالم اللساني (فان ديك) في حديثه عن ترابُط البنى المؤلَّفة في النص في كتابه (النص والسياق)، وكذلك يتقاطع مع بعض اللغويين المُحْدَثِين في استعماله لمصطلح (الاقتران)؛ لأن النص يقوم على قاعدة الانسجام أو الاتساق(٤٢).

ويتناول ابن خلدون الأسلوب في مقدمته من خلال الشعر والنثر، كما أنه ربط الأسلوب بالمخاطَب والمخاطِب، ومقتضى الحال الذي يربط بينهما من أبعاد؛ لتتجسَّد

الصلة وتَقْوَى بين الأسلوب والسياق اللغوي؛ لأن الأسلوب عنده يرتبط بالمتكلم؛ لكونه عبارة عن عمليات ذهنية، تنتج عباراتٍ وألفاظًا لتنتظم في أسلوب معين يختص بالمتكلم، والذي يضعها بدوره في قالب لغوي وفق الأعراف والقواعد المتداولة بين الناس(٤٣).

المبحث الثاني: مفهوم البلاغة عند الغربيين

البلاغة عن علماء الغرب تسمَّى الأسلوبية، وقد عرَّفها لاهارب (Laharb) بأنها: "التعبير الصحيح عن عاطفة حق"(٤٤)، كما عرَّفها الجمبلاطي بأنها: "العلم أو الفن الذي يعلِّمنا كيف نقول الكلام الجميل الذي يؤثِّر في نفوسنا، والذي يستطيع الأديب من خلاله أن ينقل عبر الكلمات والجمل أفكاره وآراءه على أحسن وجه"(٤٥).

وقال (لابروبير): "إنها قصة روحية تُولِينَا السيطرة على النفوس"(٤٦).

وعرَّفها أحمد الشايب تعريفات مختلفة، ودارت حول ثلاثة محاور، هي: طريقة الكتابة، والصورة اللفظية التي تعبِّر بها عن المعاني، وفن الكلام، وفي تعريفه جمع بين الطريقة والصورة والفن، وهذه العناصر يشترك في تفاعلها ثلاثة عناصر، هي: المُنْشِئ للأدب، والمتلقي له، والأدب نفسه(٤٧).

أما أمين الخولي فقال: "هي البحث عن فنية القول، وإذا ما كان الفن هو التعبير عن الإحساس بالجمال، فالأدب هو القول المعبِّر عن الإحساس بالجمال، والبلاغة هي البحث في كيف يعبِّر القول عن هذا الإحساس"(٤٨).

ويقول عبد القادر أحمد: "هي علم يحدِّد القوانين التي تحكم الأدب، والتي ينبغي أن يتبعها الأديب في تنظيم أفكاره وترتيبها، وفي اختيار كلماته، والتأليف بينها في نسَقٍ صوتي معين"(٤٩).

ويقول المسدي: "الأسلوبية امتداد للبلاغة، ونفي لها في نفس الوقت"(٥٠)، ويرى رومان جابكسون أن: "الأسوبية تبحث عما يتميَّز به الكلام الفني عن بقية مستويات الخطاب أولًا، وعن سائر الفنون الإنسانية ثانيًا"(٥١).

ويقول مايكل ريفاتير: إن موضوع الدراسة الأسلوبية عنده هو النص، فالنص يضمن نوعًا من التواصل بين الكاتب والقارئ، ولأن الكاتب فاقد لوسائل التعبير غير اللغوية؛ كالإشارة مثلًا، فإن عليه استخدام ما يمتلك من صيَغ وأساليب بهدف التأثير في أكبر عدد من القرَّاء، ومن جملة هذه الأساليب المبالغة والاستعارة، والتقديم والتأخير[٥٢].

من خلال هذه التعريفات سابقة الذِّكْر حول الأسلوب والأسلوبية نجد أن لهذا العلم جانبًا تطبيقيًّا وآخر نظريًّا، دون فصل بينهما، ويستعمل الأسلوب للإشارة إلى قواعد العلم اللغوي، وتستعمل الأسلوبية للإشارة إلى القواعد التطبيقية للأسلوب، فالدراسة الأسلوبية تهتم بدراسة الخصائص اللغوية في نقل الكلام من الإبداع إلى الأداء والتأثير الفني، حتى يكتسب الخطاب خصائصه الشعرية والتعبيرية.

ومن خلال ما ذكرناه من تعريفات للأسلوبية فإنه ليس هناك تعريف للأسلوبية يتمتَّع بالقدرة على الإقناع، ولا نظرية يُجمع عليها الدارسون في تناوله[٥٣]، كما أنهم قد أفاضوا في تعريف الأسلوبية، مثل: "الأسلوبية رؤية، والرؤية فكر[٥٤]"، و"الأسلوبية تُعرَّف بأنها منهج لساني"[٥٥]، و"الأسلوبية امتداد للبلاغة، ونفي لها في نفس الوقت"[٥٦].

ومن خلال ما وقفنا عليه من عدم اتفاقهم فكيف تخضع لغتنا العربية لقواعد اللغات الأوروبية وقد بذل الأوائل فيها جهدًا مضنيًا ووقتًا طويلًا في جَمْع تراثها، ونحتوا فيها أفكارهم، وهي لغة القرآن، فأدبنا أدبُ رسالةٍ ارتبط ارتباطًا وثيقًا بقواعد فكرية أصيلة، ومفهومات ربانية، ويكفي البلاغة أنها معجزةُ النبي صلى الله عليه وسلم، فالأسلوبية انطلقت من فكر علماني منحرف، ركَّزت على دراسة النص، وصرفته عن صاحبه والبيئة، وما يحيط بظروف المشاعر، والإنسان إذا أخلَّ بمعرفة الفصاحة، وأغفل علم البلاغة، فَقَدَ براعةَ التركيب، وحُسن التأليف، يقول أبو هلال العسكري: "إن أحق العلوم بالتعلُّم، وأولاها بالتحفظ بعد المعرفة بالله عز وجل، علمُ البلاغة ومعرفة الفصاحة، الذي به يُعرف إعجاز كتاب الله تعالى الناطق بالحق، الهادي إلى سبيل الرشد"[٥٧].

والأساليب مهما تعدَّدت فإنها لا تخرج عن ثلاثة أنواع:

١/ الأسلوب الخطابي: وهو ما يمتاز بالنبرة المؤثِّرة، وقوة الحُجَّة والبرهان، والتنوُّع في حركة الإلقاء، وقوة العقل الخصيب، وقوة العبارة، وقوة العارضة، وسطوع الحجة، وأظهر مميزاته ضَرْبُ الأمثال والتكرار، واستعمال المترادفات، ويَحْسُن فيه تعاقُب ضروب التعبير؛ من استفهام إلى إخبار إلى استنكار.

٢/ الأسلوب الأدبي: وهو الذي يعتمد على رقة التعبير، والتصوير الدقيق، والجمال أبرز صفاته، ومنشأ جماله لِمَا فيه من خيال رائع، والشعر والنثر الفني هما موطنا هذا الأسلوب، ففيهما يزدهر، وفيهما قنة الفن والجمال، وفيه جمال التصوير، والصور البيانية.

٣/ الأسلوب العلمي: وهو أهدأ الأساليب، وأكثرها احتياجًا إلى المنطق السليم والفكر المستقيم، وهو يُخاطِب العقل، ويشرح الحقائق العلمية التي لا تخلو من غموض، ويناجي الفكر، وميزته الوضوح، وقوته في سطوع بيانه، ويبدو فيه أثر القوة والجمال، وجماله في سهولة عباراته، ويجب أن يُعْنَى فيه باختيار الألفاظ الصريحة الواضحة، ويحسن التنحي عن المجاز، ومحسِّنات البديع في هذا الأسلوب(٥٨).

المبحث الثالث: أوجه الاختلاف بين البلاغة والأسلوبية

أولًا: كثرة التعريفات للأسلوب والأسلوبية، مما يدل على الاختلاف والتناقض، وهذا مما يدل على اختلاف أمْزِجَتِهم ومذاهبهم وأفكارهم؛ لأن الأسلوبية تتحدَّد بقيود منهج العلوم الوصفية، ولا تسعى إلى غاية تعليمية، ووجودها يلي الأثر، بينما علم البلاغة أسبق من الأسلوبية؛ لأنها حديثة النشأة(٥٩).

ثانيًا: علم البلاغة يرسم الأحكام المعيارية، بينما علم الأسلوب ينفي عن نفسه المعيارية؛ لأنه وضعي، يقول محمد عبد المطلب: "فخر للبلاغة أن تكون علمًا، لا بحوثًا، لا تلتزم بخطة أو منهج يضبط حركتها"(٦٠).

ويدَّعي أصحاب المدرسة الأسلوبية عند تحليلهم للنصوص الأدبية أنهم ملتزمون بعدم الانطباعية الذاتية والموضوعية، وليس لهم أثر مذهبي أو شخصي أو فكري عند

مناقشة النص وتحليله، والأسلوبية ليس لها معايير ثابتة؛ لأنه من الصعب ضبط عملية الأهواء، ومَن يقول بالموضوعية فهو من قَبِيل المبالغة[٦١].

يقول (جورج مونان): "إن اتهام البلاغة بِمَيْلِها إلى التصنيف والتوثيق والتعقيد ليس في مكانه، وهو أمرٌ تسعى إليه العلوم جميعًا، فالعالم حريص على اكتشاف مواطن الشبه والسيطرة على مادة بحثه، بغية استنباط قانون عام يؤلِّف بين علاقتها"[٦٢].

ولذلك يرى (ريتشارد بالمار) أن فكرة الموضوعية تحوِّل الأدب إلى أدب بارد، كما يرى (جوفري هارتمان) أن هذه الفكرة تمثِّل شكلًا من أشكال الاستبداد، ويرى (جراف) أن فكرة الموضوعية إنما هي انعكاس للعقلية التكنولوجية للعالم الغربي[٦٣].

لقد ألصقوا بالبلاغة الطابع المعياري بكثرة قوانينها وقواعدها، وما نتج عن متابعة للنصوص الأدبية والاستقراء[٦٤]، كما تفيد فكرة الموضوعية أن الأدب لا يرتبط بالمضمون، والموضوعية شيء غامض ومتناقض؛ لأنها تفصم صلتها بالعالم الخارجي، وتحوِّل الأدب إلى عالم مستقل[٦٥].

وقد رفض النقَّاد المسيحيون فكرة الموضوعية من منطلق المبدأ المسيحي (الخطيئة الكبرى[٦٦]).

ومن المعروف أن كل علم يمر بمراحل مختلفة حتى يصل إلى مرحلة النضج، وهكذا كان علم البلاغة، حيث كانت المرحلة الأخيرة، وهي مرحلة التنظيم العلمي، حيث قسمت إلى علم المعاني، والبيان، والبديع.

ثالثًا: البلاغة ترتكز على تقييم النص، بينما الأسلوبية تنحصر في دراسة الأثر الأدبي، بمعزل عما يحيط به من ظروف سياسية، أو اجتماعية، أو تاريخية[٦٧]، وكذلك تعزله عن المجتمع والمؤلف.

فالبلاغة هدفها سامٍ، ومبتغاها الصواب، والبُعد عن الخطأ، ودراسة النص الجيد؛ لأن هدفها تعليمي لإفادة المتلقي.

أما حصر الأسلوبية في دراسة النص، وعَزْلها عن المجتمع والمؤلف، فهي فكرة علمانية، فالأديب والناقد مسئول عنه يوم القيامة، حيث يحاسب كل إنسان على عمله، يقول تعالى: {مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ}(٦٨).

فالأسلوبية لا غاية لها، فهي تدرس النص الجيد والسيئ، كما أنها لا تؤمن بأن يحكم على النص بالصواب أو الخطأ حتى تُغطي على أصحاب النصوص الضعيفة أو الرديئة المستهجَنة، حمايةً لهم من النقد، ولذلك يرفضون محاكمة الأديب، وإصدار حيثيات للحكم ضده، كما لا يقبلون فَحْصَ العمل الأدبي كوثيقة براءة أو اتهام، وإنما غايتهم فحص صلاحيات العمل الأدبي في تركيباته اللغوية للكشف عن قيمتها الجمالية، بدءًا من الجزء، وانتهاءً إلى الكل(٦٩).

رابعًا: في الأسلوبية فصل النص عن قائله، وهذا نوع من التمرُّد والفجور، فالعمل الأدبي الذي لا يُعرف قائله، ولا ظروفه، ولا تُعرف بيئته، أشبه باللقيط المجهول الهوية، ولذلك خطَّؤوا (تن) الذي يرى ضرورة دراسة بيئة النص قبل دراسة النص؛ لأن دراسة البيئة ستكون عونًا للناقد على فَهْم النص وتحليله، ثم الحكم له أو عليه(٧٠).

ففكرة عزل المؤلف أو صاحب النص تُوحي بفكرة عزل النصوص القرآنية عن قائلها جل جلاله، وكذلك تُوحي بعزل نصوص الحديث الشريف عن قائلها صلى الله عليه وسلم، فما قيمة النصوص القرآنية أو نصوص الحديث الشريف، إن لم تُنْسَب إلى قائلها؛ حيث يكون لها قدسيتها وهيبتها، وقيمتها الإيمانية.

خامسا: البلاغة ارتكزت على فصل الشكل عن المضمون في الخطاب اللساني، لأنها تقوم على ثنائية الأثر الأدبي، وتتناول مسائلها منفصلة عن الزمان والبيئة، وهي انفصالية في البحث وذات نظرة جزئية عند وقوفها على حدود الجملة، حيث ترتكز على الشواهد المتفرقة والأمثلة المجتزأة، كما شاهدنا ذلك مع الجرجاني والجاحظ والسكاكي.

فالبلاغة عملها تقييم العمل الأدبي لتحكم بمدى مطابقته لما قعدته وقننته، وإلى أي حد راعى صاحبه القواعد البلاغية وقوانينها. فالمسألة تحتاج إلى تدقيق وتحليل كبير، والبحث لا يتسع المجال لذكره.

سادسًا: تقوم البلاغة على فصل الشكل عن المضمون، بينما الأسلوبية تتعامل مع النص بعد أن يُولَد، على أساس أنه كيان لغوي واحد، بمعنى أنها لا تفصل بين الشكل والمضمون(٧١)، فوجودها تالٍ لوجود الأثر الأدبي، ولا ينطلق بحثها من افتراضات جاهزة أو قوانين مسبقة؛ لأن البلاغة تستند على النص في حكمها إلى مقاييس ومعايير معينة من حيث النشأة موجودة قبل وجود العمل الأدبي(٧٢).

فابن رشيق (ت ٤٥٦ هـ) قد ساوَى بين اللفظ والمعنى، حيث يرى أن اللفظ جسم وروحه المعنى، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم، فإذا سَلِم المعنى واختلَّ بعض اللفظ كان نقصًا للشعر وهُجنة عليه، وكذلك إن ضَعُفَ المعنى واختلَّ بعضه كان للَّفظ من ذلك أوفرُ حظٍّ، فإن اختلَّ المعنى كله وفسد بقي اللفظ موات لا فائدة فيه، وكذلك إن اختلَّ اللفظ جملة وتلاشى لا يصح له معنى؛ لأنَّا لا نجد روحًا من غير جسم البتة(٧٣).

فقضية الخلاف حول اللفظ والمعنى قديمة بين النقاد والأدباء، ولكن الجميع متفق على اعتبار المعنى واللفظ مهمَّيْن في الصناعة الأدبية، فلا يستغني أحدهما عن الآخر؛ لأنهما مدار الحكم على الأعمال الأدبية(٧٤).

نالت نظرية النظم قبولًا واسعًا عند النقاد المُحْدَثِين من العرب والغرب؛ حيث تلتقي أقوالهم مع الجرجاني الذي يرى أن الكلمات رموز للمعاني، وإننا نفكر بالألفاظ(٧٥).

سابعاً: من المآخذ على الأسلوبية، أن بعض أصحابها يزعم أن النص يخلق الأسلوب، وأن النص هو الذي خلق شجرة الزقوم؛ إذ لا وجود لها خارج النص، يقول تعالى: {طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥)}(٧٦)، ولذلك أنكروا نصًّا قرآنيًّا ثابتًا في كتاب الله، كما أنكروا أن الله خلق شجرة الزقوم التي أَعَدَّها الله طعامًا للكافرين المنكِرين(٧٧).

ويرى أحد نقاد الأسلوبية أن الشياطين ليس لها وجود عيني كي ننفعل بهذه الآية، وإنما سبب انفعال المتلقي عن طريق طاقتها التخييلية[٧٨]، والواقع أن الشيطان له وجود في الخارج؛ لقوله تعالى: {إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ}[٧٩]، فالانفعال ناتج عن الوجود العيني للشيطان، وليس ناتجًا عن الطاقة التخييلية[٨٠].

ثامناً: عند دراسة النصوص أقصت الأسلوبيةُ الذوقَ؛ لأن منهجها وصفي، فهي داخلة في دائرة العلوم البحتة التي لا صلة لها بالذوق[٨١].

ولكن علماء البلاغة اعتمدوا في دراستهم للنصوص على الذوق؛ كالجرجاني الذي اعتمد في كل ما تناوله من موضوعات على الذوق الأدبي؛ فالذوق عنده هو المرجع في دراسة الأسلوب[٨٢]، حيث يقول: واعلم أنه لا يصادف القول في هذا الباب موقفًا من السامع، ولا تجد له قبولًا حتى يكون من أهل الذوق والمعرفة[٨٣].

وكذلك ابن الأثير عندما تحدَّث عن الألفاظ المفردة أشار إلى أهمية الذوق[٨٤]، فالتذوُّق الأدبي هو "اقتدار الفرد على إدراك ما في النص الأدبي من قوة وضعف، وجمال وقبح، مبنيًّا بالطبع على مقومات النقد الأدبي والبلاغة، مما يجعله يستمتع به، أو ينفر منه"[٨٥].

فالبلاغة والأدب والنقد هي ألفاظ تختلف في الصورة اللفظية، ولكن يحكمها رباط وثيق؛ فالأدب لا يتسمَّى باسمه إلا البلاغة، والنقد الأدبي يأخذ مادته من كيان البلاغة في الأدب[٨٦].

تاسعاً: إن مسألة الجزئية التي ألصقت بالبلاغيين إنما هي ضرورة يحكمها المنهج؛ لأن أي دارس يلجأ إلى اختيار مفاهيمه من خلال اجتزاء الشاهد، فبالرغم من كثرة الدراسات الأسلوبية والبنيوية لم نجد منها ما يتعامل مع النصوص الكاملة تفسيرًا وتحليلًا، إلا إذا كان الدارس معنيًّا بدراسة تطبيقية خاصة[٨٧]، فالقاضي الجرجاني الناقد البلاغي وازَن بين قصيدة الشاعر عبد الصمد بن المعذل وبين شعر المتنبي، فالبلاغيون القدماء كانوا على وعي تام بدراسة النص الشعري كاملًا، موازنةً مع نصوص شعرية أو قرآنية[٨٨]، كما أن الناقد البلاغي الباقلاني قد وقف على معلقة امرئ القيس:

قِفَا نَبْكِ من ذكرى حبيب ومنزلِ بسِقطِ اللِّوى بين الدَّخولِ فحَوملِ

فوازَنَ بينها وبين النص القرآني، وأشار إلى سلبيات النص الشعري وإيجابياته(٨٩)، وبيَّن ما فيه من نقص وعوار، حتى يزداد الناظر بصيرة، وكيف تقع المشابهة والمقاربة، ويعلم كيف تكون الموازنة(٩٠).

عاشراً: ارتبطت البلاغة العربية بعلمَيِ المنطق والنحو؛ فعلم المنطق يساعد على معرفة طرق التفكير الصحيحة، والنحو يُعِين على تكوين الجمل الصحيحة، ثم بعد ذلك تبدأ عملية الفن البلاغي في بيان الأسرار البلاغية للمادة المدروسة للتأكُّد من صحَّتها، والهدف من ذلك إقناع المخاطب والتأثير عليه حتى يحصل على فائدة علم البلاغة(٩١).

أما الأسلوبية فقد ارتبطت بثلاثة روافد، هي: علم اللغة، والنقد الأدبي، والبلاغة العربية.

الحادى عشر: ومن وجوه الاختلاف بينهما: يقول أصحاب المدرسة الأسلوبية: إن البلاغة العربية لم تُغَطِّ قط بعضَ الأجناس الأدبية التي ظهرت على الساحة الأدبية المعاصرة؛ كالقصة القصيرة، والرواية والمسرحية، والشعر الحديث، وهذا القول فيه اتِّباع للهوى ومغالطة، فالقرآن الكريم قد ضمَّ بين دَفَّتَيْهِ كثيرًا من القصص التي استحوذت على جزء كبير من هذا الكتاب الكريم؛ كقصة سيدنا سليمان، وأصحاب الحِجْر، وفي القرآن الكريم سورة بأكملها (القَصص).

فالقَصص القرآني والنبوي يُعدُّ واقعًا لمشاهدة حقيقية حيث لا مجال للخيال فيها، وليست لها علاقة بالحكايات والأساطير التي يحكيها المؤلِّفون من نَسْج خيالهم، والهدف من القصص في الكتاب والسُّنَّة تثبيت الدين والعقيدة السليمة، وتنقية النفس البشرية، وتطهيرها من الخرافات، إضافة إلى إرساء الإيمان بالله.

فالبلاغة والأدب والنقد كان لهم الحظ الأوفر في إثراء الفكر الإنساني، وتنمية العقل البشري، وذلك مما هيَّأ للباحثين تداول هذه القصص في بحوثهم الدراسية ورسائلهم الجامعية عبر التحليل البلاغي، ومَن أراد ذلك يمكنه الرجوع إلى ما كُتِبَ في

البحوث الدراسية، والرسائل الجامعية التي تناولت موضوع القصة، وأما عن الرواية والمسرحية فمحلها النقد الأدبي.

وما نريد أن نشير إليه هو أن الأسلوبية ارتبطت بالنقد وعلم اللغة والبلاغة، ويعترف كثير من أصحاب المدرسة الأسلوبية باستقلالية البلاغة عن الأسلوبية، مع وجود الاتفاق والاختلاف بينهما، كما يعترفون بأن كلًّا منهما له مجاله الخاص الذي يزدهر فيه(٩٢).

أما الشعر الحديث الذي يسمى بشعر التفعيلة، أو الشعر الحُرّ، لا يتقيَّد بعدد التفعيلات في السطر الواحد، بدأ هذا الشعر على يد الناقدة نازك الملائكة في بغداد سنة ١٩٤٧م، وأشارت إلى أن الشعر الحر أصعب من شعر الشطرين العربي الموزون المقفى(٩٣)، وهو صدى للشعر الغربي، فاستجاب له الشباب ومَضَوْا في تطبيقه(٩٤)، فشعر (التفعيلة)، أو ما يسمى بالشعر الحر، هو أقرب للنثر منه للشعر، وليس في مستوى الشعر العربي الموزون المقفى.

فالبلاغة العربية لها القدرة على اقتحام ميدانه ودراسته، وهذا الشعر الحر، حُرٌّ في الخروج عن قواعد القافية وعلم العروض، وحرٌّ في الخروج عن قواعد الدين وتشريعاته، وحرٌّ في خروجه عن الأدب والسلوك والأخلاق.

الثاني عشر: ومن الاختلاف بين البلاغة والأسلوبية اتساع دراسة الظواهر اللغوية جميعها من أدنى المستويات -وهو الصوت المجرَّد للحرف -إلى أعلاها -وهو المعنى- فمن الناحية الصوتية تدرس الأسلوبية المعنى الكلي للنص مبيِّنة الغرض أو الهدف الذي يدل عليه، كما تدرس دلالات الجمل والكلمات(٩٥)، وفي هذا اتهام للبلاغة، فالقصور لم يكن ناتجًا عن طبيعة البلاغة وعلومها، ولكنه ناتج عن التقاعس من علماء البلاغة المعاصرين؛ فالسابقون اجتهدوا، ومهَّدُوا الطريق لمن بعدهم، ولكن المعاصرين كان همهم النقد والتنظير، فلم يدرسوا النصوص الشعرية والنثرية من الصوت المجرَّد إلى أعلى المستويات، وأخص المعنى، حتى يحكموا على أن البلاغة قاصرة عن دراسة جميع الظواهر اللغوية أم لا.

تناول علماء البلاغة المعاصرون في دراستهم الصوت، وهو أدنى المستويات، كما تناولوا الكلمة والجملة البلاغية، ولكن في حدود التوظيف البلاغي لصيغة الكلمة، وهي دراسة نظرية تطبيقية، فكان القصور من المعاصرين؛ لأن البلاغة ليست عاجزة عن دراسة جميع المستويات للظواهر البلاغية.

الثالث عشر: ومن وجوه الخلاف بين البلاغة والأسلوبية أن البلاغة تمزج بين العصور في دراستها للنصوص الأدبية، بينما الأسلوبية قد تدرس ظاهرة لغوية في عصر واحد، أو دراسة فن أدبي معين؛ كالرواية، أو القصة، أو القصيدة، أو أديب معيَّن.

فالأسلوبية كثيرًا ما تصطدم مفاهيمها مع المفاهيم الإيمانية والقرآن الكريم، وإلى ذلك أشار أحد أفرادها (ريتشارد برافورد) الذي قال: "إن الأسلوبية محيِّرة مراوِغة، كثيرة الغموض والمزالق، سريعة الإفلات من اليد"(٩٦).

ومما يؤسَف له أن بعض العرب من نقَّاد الأسلوبية يتَّهمون البلاغة العربية بالقصور، ويعتبرونها عاجزة، ولا يشيرون لمآخذ الانحرافات الأسلوبية، بل ويصفونها بالعجز، وهي معجزة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويعتبرون الأسلوبية وريثًا شرعيًّا للبلاغة التي أدركها سن اليأس، وحكم عليها تطوُّر الفنون والآداب الحديثة بالعقم(٩٧).

كما أنهم جعلوا من البلاغة بلاغتين؛ قديمة وحديثة، ويطلقون وصف البلاغة التقليدية أو القديمة على البلاغة العربية(٩٨).

الخاتمة

إن مفهوم الأسلوبية ما زال غامضًا، بسبب تعدُّد تعريف الأسلوب والأسلوبية، وإن كثرة هذه التعريفات لا فائدة منها، كما أن قَصْر الأسلوبية على دراسة النص دون معرفة قائله والظروف المحيطة به من اجتماعية وسياسية وفكرية واقتصادية إنما هي فكرة علمانية تهدف إلى فصل القرآن الكريم عن قائله، وكذلك الحديث النبوي؛ فاللغة العربية لا يصحُّ إخضاعها لقواعد اللغات الأجنبية، التي ثبت قصورها عن ترجمة القرآن الكريم وبيان معانيه، وكذلك الحديث النبوي المعروف بدقّته وأمانته، فاللغة العربية شعرًا ونثرًا قد ارتبطت برسالة ربانية عالمية[٩٩]، وقواعد الأسلوبية لا تنطبق على كتاب الله، ولا نحبِّذ دراسته بمثل هذه المصطلحات والأساليب[١٠٠].

إن معيارية البلاغة العربية لم تأتِ من فراغ، بل كانت ناتجة عن متابعة للنصوص الأدبية واستقراء لها[١٠١]، وأصحاب الأسلوبية يَعِيبون على البلاغة العربية معياريتها، فلِمَ لا يَعيبون العلوم الأخرى؛ كاللغة والصرف والنحو التي تعتمد على المعيارية؟! فالأسلوبية ليست علمًا، وقد خَلَتْ من قواعد ثابتة ومعايير مقرَّرة[١٠٢].

فما قام به الأسلوبيون من محاولة لإدخال نظرية الانحراف أو الانزياح على دراسة القرآن غير صحيح، من خلال الأمثلة التي تطرَّقوا إليها، فلفظة (الفلق) في قوله تعالى: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ} لا يمكن أن تَحُلَّ مكانها كلمة أخرى؛ لأن كلمة (الفلق) تعني الصباح، ويقابلها قوله تعالى: {وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ}، فلو قيل في غير القرآن: قل أعوذ برب السماوات، أو برب الأرض، أو برب الجبال، لَمَا كان هناك تقابُل بينها وبين {غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ}، أي: الليل إذا أظلم، فالصباح يقابل الليل، ولا يقابل الليل السماوات أو الأرض أو الجبال.

فمساواتهم للنصوص الجيدة والرديئة دون إصدار حكم بالخطأ أو الصواب ينتج عنها إخضاع النصوص القرآنية إلى تفسيراتهم الملحدة، وأذواقهم المريضة[١٠٣].

وقد وصف لطفي الخولي القرآن بأن نصوصه تخاصِم الفكر والعقل، وتَجْبُن عن ارتياد آفاق الإبداع التي لا نهاية لها[١٠٤].

وما نريد الوصول إليه هو أن الأسلوبية لا يمكن أن تكون بديلًا لعلم البلاغة؛ لأن البلاغة هي معجزة الرسول صلى الله عليه وسلم، فلا يخطر على بال مسلم أن تكون

الأسلوبية هي المعجزة، وصدق أبو هلال العسكري فيما قال: "إن أحق العلوم بالتعلُّم، وأولاها بالتحفظ -بعد المعرفة بالله جل جلاله- علم البلاغة، ومعرفة الفصاحة، الذي يُعْرَف به إعجاز كتاب الله تعالى، الناطق بالحق، الهادي إلى سبيل الرشد"(١٠٥).

فمن أخلَّ بمعرفة الفصاحة، وأغفل علم البلاغة، لم تكن له معرفة بالإعجاز القرآني، مما خَصَّه الله به؛ من براعة التركيب، وحُسن التأليف، وما فيه من الاختصار اللطيف، والإيجاز البديع.

وفي الختام نسأل الله التوفيق والسداد، والعلم النافع المفيد، إنه سميع مجيب، وصلى الله على سيد الخلق، وعلى آله وصحبه أجمعين.

المصادر والمراجع

١- الأسلوب والأسلوبية بين العلمانية والأدب الملتزم بالإسلام، ط١، ١٤١٩ هـ، ١٩٩٩م، د. عدنان علي رضا النحوي، دار النحوي للنشر والتوزيع.

٢- البيان العربي، بدوي طبانة، دار الثقافة للطباعة والنشر، ١٩٨٨م.

٣- تأثير الفكر الديني في البلاغة العربية، مهدي صالح السامرائي، دار عمار للنشر والتوزيع، ٢٠٠٨م.

٤- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي، ج١، دار الجيل، بيروت، لبنان.

٥- أسرار البلاغة، الشيخ الإمام أبو بكر عبد القاهر الجرجاني، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٨م.

٦- البلاغة تطوُّر وتاريخ، شوقي ضيف، دار المعارف مصر، ١٩٨٣م.

٧- مفتاح العلوم، السكاكي، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ٢٠٠٠م.

٨- لسان العرب، ابن منظور، مج ٧، تحقيق مجموعة من الأساتذة، دار صادر، بيروت، ط٦، ٢٠٠٨م.

٩- أساس البلاغة، الزمخشري، تحقيق: مزيد نعيم، وشوقي المعري، مكتبة لبنان، ناشرون، ط١، ١٩٨١م.

١٠-المحيط في اللغة، الصاحب بن عباد، ج٢، تحقيق: الشيخ محمد حسن آل يسن، المكتبة الوطنية، بغداد، ط١، ١٩٧٨م.

١١-معاني القرآن، الأخفش، دراسة وتحقيق: عبد الأمير محمد أمين، عالم الكتب، للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٤ هـ، ٢٠٠٣م.

١٢-https://vb-tafsir2161/2004/06130

١٣-البيان والتبيين، الجاحظ، ج١، تحقيق: درويش جويدي، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٠م.

١٤-دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: يسن الأيوبي، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٢م.

١٥-منهج البلغاء وسراج الأدباء، القرطاجني، تحقيق: محمد الحبيب خوجة، المطبعة العربية، تونس، و.ط، ١٩٩٦م.

١٦-البلاغة والأسلوبية، محمد عبد المطلب، مكتبة لبنان، بيروت، ط١، ١٩٩٤م.

١٧-الأصول الحديثة لتدريس اللغة العربية والتربية الدينية، ط٢، دار نهضة مصر، للطبع والنشر، ١٩٧١م.

١٨-http://nasershedan.blogspot.com/2012/04/blog-post-160.html

١٩-الجامع لفنون اللغة العربية والعروض، عرفان المطرجي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ١٩٨٧م.

٢٠-طرق تعليم اللغة العربية، محمد عبد القادر أحمد،ط٥،مكتبة النهضة المصرية، ١٩٨٦م.

٢١-الأسلوبية والأسلوب،عبد السلام المسدي،دار الكتب الجديدة،بيروت،لبنان، ط٥، ٢٠٠٦م.

٢٢-الموجز في دراسة الأسلوب والأسلوبية، د. عدنان النحوي، ط١، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م، دار النحوي للنشر والتوزيع.

٢٣-نحو نظرية أسلوبية لسانية، فيلي تدريس، ترجمة: خالد محمود جمعة، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط١، ٢٠٠٣م.

٢٤-الأسلوبية الرؤية والتطبيق، يوسف أبو العدوس، دار الميسرة، للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط١، ٢٠٠٠م.

٢٥-علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، د. صلاح فضل، ط٣، كتاب النادي الأدبي الثقافي.

٢٦-مدخل إلى علم الأسلوب، شكري محمد عياد، ١٤٠٢ هـ، ١٩٨٥م، دار العلوم للطباعة والنشر.

٢٧-نُقَّادالحداثةوموت القارئ، د.عبد الحميد إبراهيم، نادي القصيم الأدبي،بريدة، ١٤١٥ هـ.

٢٨-البلاغة العربية قراءة أخرى، د. محمد عبد المطلب، مكتبة لبنان، ناشرون، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان.

٢٩-الأسلوبية مدخل نظري، دراسة تطبيقية، د. فتح الله أحمد سليمان، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، د.ط، ١٩٩٧م.

٣٠-الحداثة سرطان العصر، أو ظاهرة الغموض في الشعر العربي الحديث، د. إبراهيم عبد العظيم المطعني، مكتبة وهبة، القاهرة.

٣١-الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية قراءة في نموذج إنسان معاصر، عبد الله القذامي، النادي الأدبي الثقافي، السعودية، ط١، ١٩٨٥م.

٣٢-الحداثة في منظور إيماني، د. عدنان علي رضا النحوي، ط٢١، ١٤٠٩هـ.

٣٣-التقديم والتأخير ومباحث التراكيب بين البلاغة والأسلوبية، د. مختار عطية، دار الوفاء للطباعة والنشر.

٣٤-الوساطة بين المتنبي وخصومه، القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني، تحقيق وشرح: محمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي، دار المريخ للنشر.

٣٥-الأسلوبية منهجًا نقديًّا، محمد عزام، منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، دمشق، ١٩٨٩م.

٣٦-الأسلوب ودراسة لغوية إحصائية، د. سعد مصلوح، دار البحوث العلمية.

٣٧-الصناعتين، الكتابة والشعر، لأبي هلال العسكري، تحقيق: علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، طباعة عيسى الحلبي وشركاه.

٣٨-البلاغةالعربية(المفهوم والتطبيق)،دارالمناهج للنشروالتوزيع، ط١، ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٧م.

٣٩-مفتاح العلوم، السكاكي، دار الرسالة، بغداد، ط١، ١٩٨٢م.

٤٠-سر الفصاحة، لابن سنان الخفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. و، ١٩٩٢م.

٤١-الحيوان،الجاحظ،تحقيق:عبد السلام هارون،مطبعة البابي الحلبي،القاهرة،و.ط،١٣٥٧هـ.

٤٢-نقد الشعر، قدامة بن جعفر، تحقيق: كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٤.

٤٣-المثل السائر، ابن الأثير، تحقيق: محمد محيي الدين، ج١، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.

٤٤-العمدة، لابن رشيق، تحقيق: محمد عبد القادر، دار الكتب العلمية، منشورات محمد بيضون، ج١، بيروت، لبنان.

٤٥-دراسات بلاغية، د. بسيوني عبد الفتاح، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٢٦ هـ، ٢٠٠٦م.

٤٦-الأسلوب والأسلوبية، أحمد درويش، مدخل في المصطلح وحقول البحث ومناهجه، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨، مج٥، العدد ١، ٢.

٤٧-سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي، قدَّم له واعتنى به: إبراهيم شمس الدين، كتاب ناشرون، ط١، ٢٠١٠م، لبنان.

٤٨-عيار الشعر، لأبي الحسن بن أحمد بن طباطبا العلوي، تحقيق د. عبد العزيز ناصر المائع، مكتبة الخانجي بالقاهرة.

٤٩-المعجم المفصل للأدب، محمد تونجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٩م.

٥٠-البلاغة فنونها وأفنانها (علم المعاني).

الحواشي السفلية

(١) البقرة، الآية: ٢٣.

(٢) الأسلوب والأسلوبية بين العلمانية والأدب الملتزم بالإسلام، ص١٩٣.

(٣) علم البيان، بدوي طبانة، ص١٠.

(٤) البيان والتبيين، الجاحظ، ج١، ص٨٥.

(٥) نقد الشعر، قدامة بن جعفر، ص٢٦.

(٦) المثل السائر، ابن الأثير، ج١، ص٨١.

(٧) البلاغة تطور وتاريخ، شوقي ضيف، ص٦٨.

(٨) البلاغة الاصطلاحية، د/ عبده عبد العزيز قلقيلة، ص١٧.

(٩) الحيوان، الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، ص١٧١.

(١٠) العمدة، لابن رشيق، ج١، ص٢٦٧.

(١١) المرجع السابق، ص٢٦٣.

(١٢) نقد الشعر، لابن قدامة، ص١٥-١٦.

(١٣) البلاغة تطوُّر وتاريخ، شوقي، ص١٠٣-١٠٤.

(١٤) تأثير الفكر الديني في البلاغة العربية، مهدي السامرائي، ص٢٩١.

(١٥) البلاغة تطور وتاريخ، مرجع سابق، ص١٠٧.

(١٦) علم البيان، بدوي طبانة، مرجع سابق، ص٧.

(١٧) البلاغة تطور وتاريخ، مرجع سابق، ص ١٠٧-١٠٨.

(١٨) عيون النثر العربي القديم، عيار الشعر، ابن طباطبا، إعداد: خليل الشيخ، ط١، ٢٠٠٥م، إصدار المكتبة الوطنية، الإمارات العربية المتحدة، ص٨.

(١٩) الصناعتين، العسكري، ص١٧٣، ١٩٠، ٢٦٠، ٢٦٦.

(٢٠) الصناعتين، مرجع سابق، ص٦٠.

(٢١) تأثير الفكر الديني، مرجع سابق، ص٢٩٢.

(٢٢) العمدة، ابن رشيق، ج١، مرجع سابق، ص٣، ٣٢، ٣٤، ٤٥، ٤٧، ٥١.

(٢٣) سر الفصاحة، الخفاجي، ص٦، ٧.

(٢٤) سر الفصاحة، الخفاجي، ص٢١.

(٢٥) البلاغة تطور وتاريخ، شوقي، مرجع سابق، ص١٥٧.

(٢٦) دراسات بلاغية، د/ بسيوني عبد الفتاح، ص٤٧.

(٢٧) البلاغة تطور وتاريخ، شوقي، مرجع سايق، ص١٦١.

(٢٨) أسرار البلاغة، الجرجاني، ص٣.

(٢٩) البلاغة الاصطلاحية، قلقيلة، مرجع سابق، ص٢١.

(٣٠) مفتاح العلوم، السكاكي، ص٢٥٢.

(٣١) البلاغة العربية والمفهوم (التطبيقي)، حميد الثويني، ص١٤.

(٣٢) لسان العرب، ابن منظور، ص٢٢٥.

(٣٣) البلاغة والأسلوبية، د/ محمد عبد المطلب، ص٩.

(٣٤) أساس البلاغة، الزمخشري، ص٣٨٦.

(٣٥) المحيط في اللغة، الصاحب بن عباد، ج٢، ص٢٦٣.

(٣٦) معاني القرآن، الأخفش، ص٢٢.

(٣٧) البلاغة تطور وتاريخ، مرجع سابق، ص١١٢.

(٣٨) https://vb-tafsir2161/2004/06130 .

(٣٩) البيان والتبيين، ج١، مرجع سابق، ص٩٩.

(٤٠) المرجع السابق، ج١، ص١٠٠.

(٤١) دلائل الإعجاز، الجرجاني، ص٢٤.

(٤٢) منهج البلغاء وسراج الأدباء، القرطاجني، ص٣٦٤.

(٤٣) البلاغة والأسلوبية، محمد عبد المطلب، مرجع سابق، ص٨٢، ٨٣.

(٤٤) التأثير الفكري الديني في البلاغة العربية، مهدي صالح، ص٢٩٢.

(٤٥) الأصول الحديثة لتدريس اللغة العربية والتربية الدينية، علي الحمبلاطي، ص٢٩٠.

(٤٦) التأثير الفكري، مرجع سابق، ص٢٩٢.

(٤٧) http://nasershedan.blogspot.com/2012/04/blog-post-160.html.

(٤٨) الجامع لفنون اللغة العربية والعروض، عرفات مطرجي، ص٢٢.

(٤٩) طرق تعليم اللغة العربية، محمد عبد القادر، ص٢٨٩.

(٥٠) الأسلوبية والأسلوب، المسدي، ص٥٢.

(٥١) الأسلوب والأسلوبية، أحمد درويش، مدخل في المصطلح وحقول البحث ومناهجه، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨، مج ٥، العدد ١، ٢، ص٦٦.

(٥٢) الأسلوبية الرؤية والتطبيق، يوسف أبو العدوس، ص١٤٠.

(٥٣) علم الأسلوب ومبادئه وإجراءاته، ص٨.

(٥٤) الأسلوب والأسلوبية بين العلمانية والأدب الملتزم بالإسلام، ص١٥٩.

(٥٥) الأسلوبية والأسلوب، المسدي، ص٤٨.

(٥٦) الأسلوبية والأسلوب، مرجع سابق، ص٥٤.

(٥٧) الصناعتين، أبو هلال العسكري، ص٥.

(٥٨) جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، أحمد الهاشمي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٣٦ هـ، ٢٠١٥م، ص٤٢، ٤٣.

(٥٩) مدخل إلى علم الأسلوب، ص٤٤.

(٦٠) المرجع السابق، ص٤٥، الأسلوبية والأسلوب ص٥٢.

(٦١) الأسلوب والأسلوبية بين العلمانية والأدب الملتزم بالإسلام، ص١٩٢.

(٦٢) التقديم والتأخير ومباحث التراكيب بين البلاغة والأسلوبية، ص١٢٤.

(٦٣) نقاء الحداثة وموت القارئ، ص٣٤ وما بعدها.

(٦٤) البلاغة العربية، قراءة أخرى، ص٢١.

(٦٥) الحداثة وموت القارئ، ص٣٦.

(٦٦) المرجع السابق، ص٣٥.

(٦٧) الأسلوبية مدخل نظري ودراسة تطبيقية، د/ فتح الله، ص٣٦.

(٦٨) ق، الآية: ١٨.

(٦٩) البلاغة والأسلوبية، ص٣٦١.

(٧٠) الحداثة سرطان العصر، أو ظاهرة الغموض في الشعر العربي الحديث، ص٢١.

(٧١) الأسلوبية والأسلوب، ص٣٥.

(٧٢) الأسلوبية مدخل نظري ودراسة تطبيقية، فتح الله، ص٣١.

(٧٣) العمدة، ابن رشيق، ج١، ص١٢٤.

(٧٤) قضايا النقد الأدبي، ص١٨٢.

(٧٥) النقد العربي التطبيقي بين القديم والحديث، د/ أبو كريشة، ص٢٣٥.

(٧٦) الصافات، الآية: ٦٥.

(٧٧) الموجز في دراسة الأسلوب والأسلوبية، ص٨٠.

(٧٨) الخطيئة والتكفير، ص٣٢.

(٧٩) الأعراف، الآية: ٢٧.

(٨٠) الحداثة من منظور إيماني، ص٨٤٩.

(٨١) علم الأسلوب وعلم البلاغة، عباد، ص٤٥.

(٨٢) دلائل الإعجاز، ص٥٦٤.

(٨٣) المرجع السابق، ص٢٩١.

(٨٤) مدخل إلى علم الأسلوب، ص٤٨، التقديم والتأخير ومباحث التراكيب بين البلاغة والأسلوبية، ص١٣٨.

(٨٥) تعليم اللغة العربية دراسة تحليلية ومواقف تطبيقية، حسن سليمان قورة، ط٣، ١٩٧٧م، دار المعارف مصر، ص٣٣٧.

(٨٦) المرجع السابق، ص٣٣٧.

(٨٧) الديوان، ج٢، ص١١٠.

(٨٨) الديوان، ج٢، ص٣٦٦.

(٨٩) البلاغة العربية قراءة أخرى، ص٢٦، ٢٧.

(٩٠) التقديم والتأخير ومباحث التراكيب بين البلاغة والأسلوبية، ص١٤٦.

(٩١) النص والأسلوبية بين النظرية والتطبيق، عدنان بن ذريل، ص٣٥.

(٩٢) قضايا الشعر المعاصر، نازك الملائكة، ص٣٥.

(٩٣) المرجع السابق، ص١٨٨-١٨٩.

(٩٤) المرجع السابق، ص٣٥٣.

(٩٥) مدخل إلى علم الأسلوب، ص٤٨.

(٩٦) الوجيز في دراسة الأسلوب والأسلوبية، عدنان النحوي، ص٧٤.

(٩٧) علم الأسلوب ومبادئه وإجراءاته، ص٥.

(٩٨) الأسلوبية منهجًا نقديًا، محمد عزام، ص٣٨-٣٩.

(٩٩) الأسلوب والأسلوبية بين العلمانية والأدب الملتزم بالإسلام، ص١٢٦.

(١٠٠) المرجع السابق، ص٢١١.

(١٠١) البلاغة العربية قراءة أخرى، ص٢١.

(١٠٢) الأسلوب والأسلوبية بين العلمانية والأدب الملتزم بالإسلام، ص١٩٣.

(١٠٣) الحداثة سرطان العصر، أو ظاهرة الغموض في الشعر العربي الحديث، ص٢٢.

(١٠٤) الحداثة سرطان العصر، مرجع سابق، ص٢٢.

(١٠٥) الصناعتين، العسكري، ص٢.